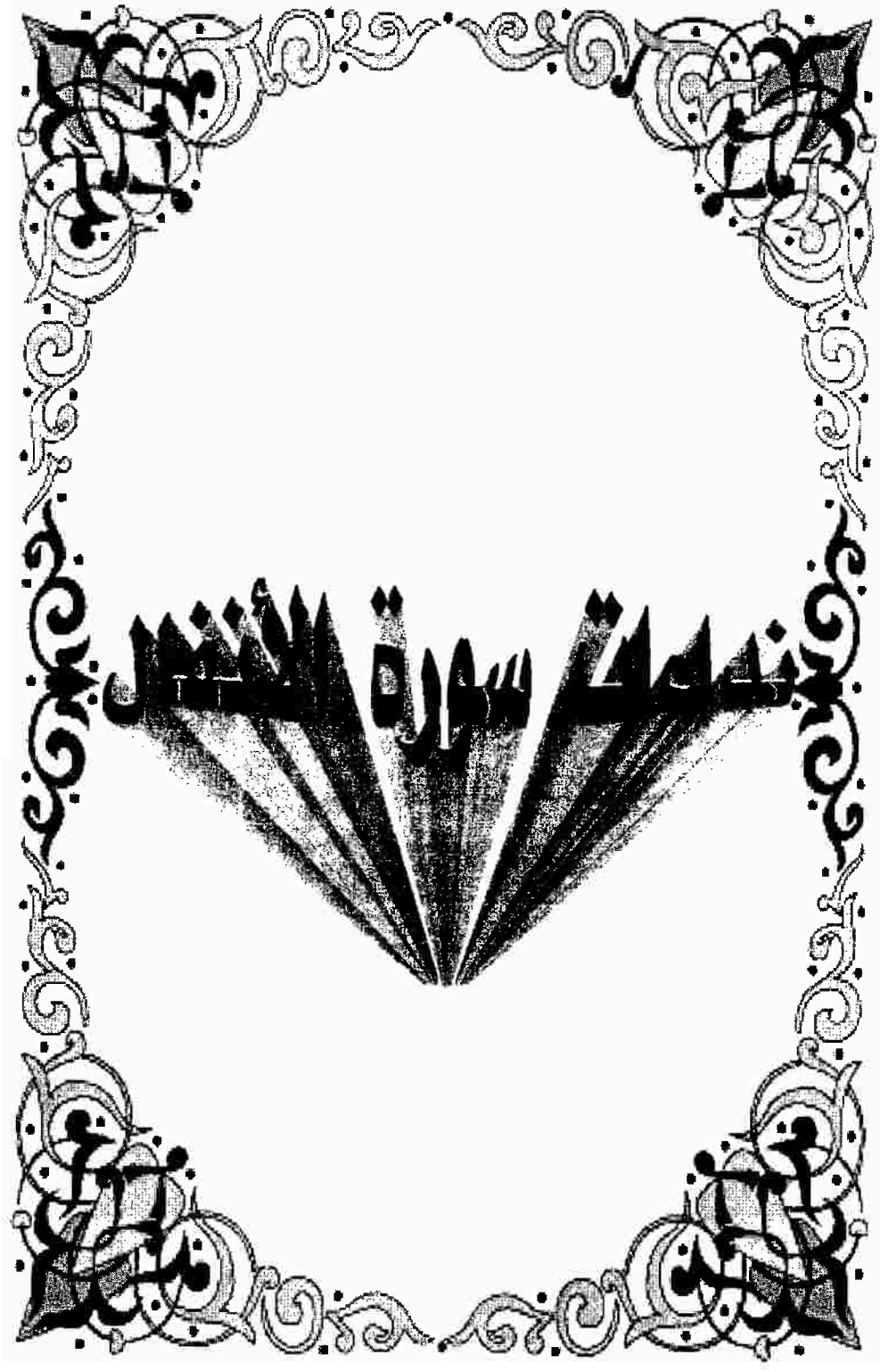
تفسير سورة الأنفال

سورة الأنفال

مدنية وهي السورة الثامنة في ترتيب المصحف ووضعت موضع السابعة من السبع الطوال، مع أن آياتها دون المائة؛ لأنها مع قصرها قدمت على سورة براءة؛ لأنها مشتملة على البسملة؛ لتكون قطعة منها. وتكون براءة لخلوها من البسملة كتتمتها وبقيتها. ولهذا قال جماعة من السلف: إنهما سورة واحدة[١].

ووضعت براءة موضعها لمناسبة الطول، فإنه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها.

ولهذا كان جواب عثمان لابن عباس - رضي الله عنهما - عندما سأله: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال- وهي من المثاني- وإلى براءة- وهي من المئين- فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموهما من السبع الطول؟

فقال عثمان رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء، دعا من كان يكتب فيقول: «**ضعوا هؤلاء الآيات: في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا**».

وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين أنها منها، فمن أجل ذلك: قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها من السبع الطوال[٢].

آياتها : سبعون وخمس آيات.

كلماتها: ألف وستمائة، وإحدى وثلاثون كلمة.

حروفها: خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون حرفاً[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٥٦/٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٥٦/٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٤٥/٣ .

وقد جاءت سورة الأنفال في أعقاب انتصار المسلمين في غزوة بدر؛ ليبين ﷻ عمل البشر وجدهم.

فأبانت أن النصر الذي أعز الله به المسلمين، كان مكافأة إلهية على صبر المؤمنين سنين عددًا.

وأن الرجال الذين خاضوا المعركة كانوا أدوات لتحقيق الآية الكريمة: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة :٢١].

وفي سورة الأنفال: ست نداءات صارمة تحتاج إلى تأمل.

فالنداء الأول: جاء فيه تحذير من الفرار من المعركة.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ.. ﴾ [الأنفال :١٥].

والنداء الثاني: جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢٠].

والنداء الثالث: بين الله ﷻ فيه: أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... ﴾ [الأنفال :٢٤].

والنداء الرابع: فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال :٢٧].

والنداء الخامس: لفت نظرهم فيه إلى ثمرة الإيمان والتقوى، وذكرهم أنها أساس الخير: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الأنفال :٢٩].

أما النداء السادس: فقد وضح لهم طريق العزة وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال :٤٥].

* * *

صلة سورة الأنفال بسورة الأعراف :

سورة الأعراف: موضوعها الأساسي: في بيان حال أشهر الرسل - عليهم السلام - مع أقوامهم، **وسورة الأنفال**: مبينة حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه.

وقيل: إن آخر الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف :٢٠٦]، يتحدث عن الملائكة، وأنهم دائموا الطاعة، وأول الأنفال يتحدث عن المؤمنين وأنهم مطيعون لله، وإن اختلفوا يبادرون بالتوبة والطاعة.

وسميت بسورة الأنفال؛ لسؤالهم عنها واختلافهم حولها، وهي جمع: نفل، وهو في اللغة: ما زاد على الواجب، ومنه صلاة النفل، وولد الولد: نفل، وقيل هو الغنيمة. وقيل: ما حصل عليه المسلمون من غير قتال، وهو الفيء، وهو في معناه بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب قتال له.

* * *

النداء الأول :
الفرار يوم الزحف

قال الله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال :١٥-١٨].

صلة الآيات بما قبلها :

بعد أن أمر الله - تعالى - الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين في الجهاد: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ [الأنفال :١٢]. أمرهم هنا بالثبات وعدم الفرار من وجوه الأعداء إلا في الضرورات الشرعية.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ لَقِيتُمُ ﴾ أي: جاهدتم وقاتلتموهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿ زَحْفًا ﴾ زحف الرجل: إذا مشى على بطنه كالحية، أو دب على مقعده كالصبي، وشبه به - هنا- مشي الجيش الكثير للقتال بزحف الصبيان؛ لأنه لكثرته يرى كأنه يزحف زحفًا.

﴿ الأَدْبَارَ ﴾ جمع دبر- وهو الخلف، ويقابله: (**القُبُل**) وهو: الأمام، ويطلق القبل والدبر على سوأتي الإنسان، وأما إطلاقه على الأمام والخلف فمشهور في اللغة، قال - تعالى -: ﴿ واسْتَبَقَا البَابَ وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف :٢٥]. وتولية الأدبار، عبارة عن الهزيمة؛ لأن المنهزم يجعل خصمه متوليًا ومتوجهًا إلى دبره ومؤخره، وهذا أعون له على قتله إذا أدركه.

﴿ مُتَحَرِّفًا ﴾ : يقال: تحرف وانحرف: إذا مال وعدل من طرف إلى

طرف، مأخوذ من الحرْف وهو الطرف أي: الجانب. **والتحرف للقتال**: الفرّ للكرّ، أي: يتظاهر بالفرار؛ ليغر عدوّه حتى يخيل له أنه انهزم، ثم يكر عليه فيقتله، وهذا من باب مكايد الحرب (**الحرب خدعة**).

﴿ مُتَحَيِّزًا ﴾ أي: منضمًا، والفئة: الجماعة. قال - تعالى -: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [الأنفال :٤٥]. والمراد: أن يظهر ضعفه، فينضم إلى جماعة أخرى يعينهم أو يستعين بهم.

﴿ بَاءَ بِغَضَبٍ ﴾ : أي: رجع بغضب وسخط من الله.

﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ : أي: مسكنه وملجأه جهنم، وبئس هذا الملجأ والمصير.

﴿ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ ﴾ : أي: مضعف بأس الكافرين بخذلانهم ونصر المؤمنين عليهم.

قال ابن كثير - رحمه الله -: هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، فإنه - تبارك وتعالى - أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ومصغر أمرهم، وأنهم في تبار ودمار. وقد وجد المخبر وفق الخبر فصار معجزة للنبي ﷺ فلله الحمد والمنة[1].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: يستنبط من قوله - تعالى -: ﴿ .. إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ أن مرات الجهاد كثيرة، وأنه ماض إلى يوم القيامة؛ لأن (**إذا**) من أدوات الشرط التي تفيد الكثرة بخلاف (**إن**) الشرطية.

الثانية: ذكرت كلمة غضب مُنكّرة؛ لإفادة التعظيم، وذلك أن التولي يطمع الكافرين في هذا الدين وأتباعه فينتهكون حرماتهم ويكون المؤمنون فتنة للكافرين فيتوهمون أنهم على الحق فيستمرون في عنادهم وكفرهم.

الثالثة: أن هذا الوعيد المذكور لمن استمر في تخاذل وعدم نصرة

(١) راجع هذه المواد اللغوية في لسان العرب .

هذا الدين وقد فهمنا هذا من صيغة المضارع: ﴿ ومَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ... ﴾.

الرابعة: في قوله عز وجل: ﴿ .. ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ... ﴾ بعُد عن مواطن الرحمة، وذلك في جهنم التي هي بعيدة المدى والقرار!!! كما ابتعد المولُّون بأنفسهم عن نصرة الدين وأهله، وآثروا الدنيا على الآخرة.. قال عز وجل: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ [الأعلى :١٦، ١٧].

الخامسة: أن من قرأ هذه الآيات بتدبر، ما استساغ أن يفرّ، وذلك أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه لا يكون إلا ما أراد... ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج :١٦] وذلك يفهم من قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ومَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾.

السادسة: أن الله عز وجل قد وعد ووعده لا يتخلف ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ [آل عمران :٩]. ووعد الله بإضعاف كيد الكافرين، ويربط على قلوب المؤمنين ويثبت أقدامهم، فلا يجدون داعيًا إلى توليهم وفرارهم.

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: في الفرار يوم الزحف:

ظاهر النصوص الشرعية: أنه من الكبائر إذا لم تكن هناك ضرورة شرعية يستند إليها الفارون، ولا يلحقهم هذا الوعيد الشديد. قال الله - تعالى - في شأن الفارّين: ﴿ .. فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ كما جاء في السنة ما يؤكد هذا الوعيد... روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[1].

الحكم الثاني: متى يحرم الفرار؟

هذه الآية، والحديث الصحيح يحرمان الفرار على إطلاقه، لكنهما لم يتعرضا للعدد الذي يحرم الفرار منه.. إلا أن القرآن يوضح بعضه

(١) سبق تخريجه.

بعضًا.. فما أجمل في موطن بينته آية أخرى.. وهي قول الله - تعالى -:: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وإن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال :٦٦].

فقد أوجبت هذه الآية على المسلمين أن يثبتوا أمام أعدائهم إذا كان العدو ضعفهم، وقد كانوا من قبل مكلفين بملاقاة الأعداء والصمود حتى ولو كانوا عشرة أضعافهم. فنسخ الله ذلك وخفف عن عباده رحمة بهم وتيسيرا عليهم.. فإذا كان جيش الأعداء يزيد أضعافًا مضاعفة على جيش المسلمين، فإنه لا يجب عليهم ملاقاته، إلا إذا كان هناك خطر جسيم كهجوم المشركين على ديار المسلمين، فإنه يجب حينئذ الدفاع عليهم، ويفترض الجهاد على الرجل والمرأة، والصغير والكبير.

الحكم الثالث: في المغامرة:

ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقتحم الواحد على العشرة، ولا القليل على الكثير لأن في ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة.. ﴿ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾، بل إن بعضهم عدَّ ذلك قتلاً للنفس.

وقال ابن العربي: إنه تجوز المغامرة لكسر شوكة المشركين وإضعاف نفوسهم، فإنهم إذا رأوا هذه الشجاعة النادرة من شخص واحد دب الرعب في قلوبهم، وأيقنوا بعدم قدرتهم على مقاومة المسلمين، وفي ذلك إعزاز لدين الله وقهر المشركين والله أعلم [1].

وعن أبي عمران ﷺ قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًا عظيمًا من الروم. فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ﷺ على الجماعة فضالة بن عبيد ﷺ فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة !

فقام أبو أيوب فقال: أيها الناس: إنكم لتؤولون هذا التأويل، وإنما

(١) روائع البيان (١/٥٩٨، ٥٩٩).

نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها!! فأنزل الله - تعالى - على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو [١].

فأنت - ترى هنا - أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنكر على من فهم أن الدخول وسط صفوف العدو لما فيه من مخاطرة إهلاك النفس.

وبين لهم أن الفرار من الجهاد، والنظر إلى المصالح الشخصية هو التهلكة الحقيقية، فيا ليت قومي يعلمون.

وجاء في تفسير القرطبي عند تفسيره لهذه الآية أيضًا قول ابن خويز منداد: فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة من اللصوص والمحاربين والخوارج، فلذلك حالتان:

إن علم وغلب على ظنه أنه سيقتل من حمل عليه وينجو، فحسن.

وكذلك لو علم وغلب على ظنه أنه سيقتل، ولكنه سينكي نكاية، أو سيبلى، أو يؤثر أثرًا ينتفع به المسلمون فجائز أيضًا [٢].

وأخرج ابن عبد الحكم بسنده وهو يحكي قصة فتح حصن نابليون، فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاصي قال الزبير: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيرًا أن يجيبوه جميعًا..

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في قوله تعالى: ﴿ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ حديث (٢٥١٢)، والترمذي، حديث (٢٩٧٢)، وابن ماجه في صحيحه (٩/١١)، حديث (٤٧١١). وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٦٣/٢).

فلما اقتحم الزبير، وتبعه من تبعه، وكبّر من معه، وأجابهم المسلمون من الخارج، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا فهربوا. فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون[١].

وقد جاء في أخبار من كان قبلنا ما يدل على جواز التضحية بالنفس في سبيل الله لتحقيق مصلحة الدين.. كما في قصة الساحر والراهب والغلام التي حكاها الإمام مسلم في صحيحه وجاء فيها: فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به فقال: ما هو؟ قال الغلام: تجمع الناس على صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام[٢].

الحكم الرابع: في الفرار عند الضرورة:

أجاز الإسلام الفرار عند الضرورة، وذلك في ثلاث صور.. وقد ذكرت الآية صورتين، والصورة الثالثة: أن يحيط العدو بالجيش أو يقطعوا على المجاهدين طريقة المؤنة والغذاء.. فقد روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: كنا في سَرية فحاص الناس حيصة؛ أي: فروا أمام العدو، قلنا: كيف نلقى النبي ﷺ وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ فأتينا النبي ﷺ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: «**من القوم؟**» فقلنا: نحن الفرارون. فقال: «**لا بل أنتم العكارون**»، فقبلنا يده فقال: «**أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين**». ثم قرأ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾»[٣].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٤، ٩٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، حديث (٣٠٠٥)، والترمذي، حديث (٣٣٤٠)، وأحمد في مسنده (٦/١٦، ١٧)، حديث (٢٣٩٧٦).

(٣) **ضعيف**: رواه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في التولي يوم الزحف، حديث (٢٦٤٧)، والترمذي، حديث (١٧١٦)، وأحمد في مسنده (٢/٧٠)، حديث (٥٣٨٤). وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود. وانظر: الدر المنثور.

والعكارون: أي الكرارون العطافون.

وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، هلكت ففررت من الزحف!!! فقال عمر رضي الله عنه: أنا فئتك [١].

الحكم الخامس: في توبة الفارّين:

ظاهر النصوص الشرعية الواردة في حرمة الفرار يوم الزحف يوهم أنّهم لا توبة لهم.. والصحيح: أن كل كبيرة قد شُرع لمقترفيها التوبة، حتى الردة يستتاب الواقع فيها ثلاثة أيام.. قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء :٤٨]، وقول النبي ﷺ «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**» [٢].

المعنى العام :

يأمر الله - تعالى - عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ بل اثبتوا لقتالهم، اصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهابًا للكافرين.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مقره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا يدل على أن الفرار يوم الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

---

(١) تفسير آيات الأحكام للسايس ٦/٣ .

(٢) رواه مسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب، حديث (٢٧٥٩)، وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤)، والبزار في مسنده (٣٩/٨)، حديث (٣٠٢١) .

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى؛ ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه لم يول دبره فارًا، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه عزته، أو: ليخدعه بذلك أو غير ذلك من مطالب المحاربين ومقاصدهم، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة، كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين، أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبه وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتِهم لقتالهم، فيبعد في هذه الحال أن تكون من الأحوال المرخص فيها؛ لأنه على هذا لا يتصور الفرار المنهي عنه. وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ... ﴾ يقول - تعالى -: لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ بحولكم وقوتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم. فما بقي واحد منهم إلا وقد أصاب وجهه، وفمه وعينيه منها. فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.

يقول - تعالى - لنبيه: لست بقوتك- حين رميت التراب- أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ أي: إن الله - تعالى - قادر على نصر المؤمنين على الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يختبر المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد

إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع - تعالى - ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقدارًا موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلاً بحسب نيته وعمله.

﴿ذَلِكُمْ﴾ النصر من الله لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيطًا بهم[1].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- الجهاد ماض إلى يوم القيامة.

٢- حض المؤمنين على الثبات في مواجهة الأعداء.

٣- الفرار بلا عذر شرعي من كبائر الذنوب.

٤- أن كل شيء بقضاء الله وقدره.

٥- التكاليف الشرعية مبنية على الابتلاء.

٦- المغامرة أجازها بعض العلماء إذا لزم الأمر ولم يكن لها بديل[2].

٧- وعد الله - تعالى - للمؤمنين بالنصر، وإبطال كيد الكافرين.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣١٧ .

(٢) إن قلوب المؤمنين ينبغي أن تكون راسخة ثابتة لا تهزمها في الأرض قوة، وهم موصلون بالله، والآجال بيد الله، ثم إنهم إلى الله إن كانوا أحياءً، وإلى الله إن كتب لهم الشهادة .
وهذا دليل من أدلة كثيرة على بطلان قول من أفتى بتحريم العمليات الإستشهادية خاصة إذا كانت الوسيلة الوحيدة التي لم يعد يجدي سواها في مواجهة إجرام اليهود واستعلائهم .
وقد بين علماء المسلمين الأفاضل جواز هذه العمليات إجمالاً، وردوا على فتوى التحريم، وقد تعرض للموضوع تفصيلاً د/ منير جمعة وهو من علماء الجمعية الشرعية.. فمن أراد المزيد فليرجع إليه .

النداء الثاني
وجوب طاعة الشرع

قال - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال :٢٠-٢٣].

صلة الآيات بما قبلها :

لما أخبر - تعالى - أنه مع المؤمنين في الآيات السابقة، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال :١٩]، أمرهم هنا أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته، وقد ذكرت هذه الآية الطاعة في أول السورة في قوله - تعالى -: ﴿ وأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال :١]، وأعيدت هنا ليعطف عليها: ﴿ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولي: الإعراض عن الحق وعدم الاستجابة لمقتضياته. والضمير في كلمة ﴿ عَنْهُ ﴾ عائد على أقرب مذكور وهو ضمير الله ﷻ في قوله: ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾.

﴿ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ : هم اليهود الذين قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [النساء :٤٦]، أو هم المشركون، وقد عدهم القرآن بمثابة الموتى: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر :٢٢].

﴿ الدَّوَابِّ ﴾ : جمع دابة، وهي كل ما يدب على وجه الأرض، قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود :٦].

﴿ الصُّمُّ الْبُكْمُ ﴾ : الصم جمع، مفرده: **أصم** وهو الذي في سمعه آفة تمنعه من السمع. **والبكم**: جمع، ومفرده: أبكم، وهو الذي في نطقه

آفة تمنعه من الكلام.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: في عودة الضمير مفردًا ﴿ ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ مع أن المرجع مثنى، وهو الله ورسوله ﷺ إشارة إلى أن كتاب الله ﷻ وسنة الرسول ﷺ يمثلان منهجًا واحدًا، وأن مصدرهما واحد وهو الوحي، قال - تعالى -: ﴿ وما يَنطِقُ عَنِ الهَوَى (٣) إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم :٣، ٤].

الثانية: أثبت السمع فقال: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾، ثم نفاه بقوله: ﴿ وهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾، ولا تعارض بينهما، فالمثبت السمع الحسي الدنيوي، والمنفي هو: سماع الاستجابة، فلا تناقض.. قال الله ﷻ : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ولَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :٨٢].

الثالثة: في التعبير عن عدم سماعهم للحق بصيغة المضارع إشارة إلى تجدد تماديهم في عنادهم وكفرهم؛ لأن الفعل يفيد التجدد والاستمرار، هذا بالإضافة إلى أن الجملة الاسمية المبدوءة بالضمير (**هم**) تفيد دوام التمادي في العناد والكفر.

الرابعة: جرى العرف على أن الدابة تطلق على إحدى ذوات الأربع، وإطلاقها على المعرضين عن الحق يشير إلى أنّهم أحط منْزلة من الدواب؛ لإهمالهم عقولهم قال الله - تعالى -: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان :٤٤].

الخامسة: في تقديم ذكر الصم على البكم: إشارة إلى أن السمع أسبق في الخلق من النطق، ولهذا ينبغي أن يسمع المدعوون الدعوة أولاً، ثم يتكلمون ثانيًا بقبول الدعوة بعد قيام الأدلة والحجج على صحتها وصدق داعيها.

السادسة: عبَّر عن عدم تعقلهم بصيغة المضارع إشارة إلى أنّهم مصرون على كفرهم وعنادهم بتجدد ذلك منهم، ولذا وبَّخهم بالتعبير عنهم بجملة الموصول ﴿ الَذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

السابعة: التعبير بالنكرة (**خيرًا**) يفيد التقليل، ومعنى هذا أن انتفاء القليل انتفاء للكثير، ويفهم من هذا: أن رحمة الله تعم الخلق جميعًا، ولو كان في قلوبهم أدنى استعداد للهداية لوفقهم في قبولها والعمل بها.

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: طاعة الله ورسوله ﷺ:

يجب على جميع المكلفين من الثقلين- الإنس والجن- أن يطيعوا الله ﷻ في كل ما أمر به وأن ينتهوا عن نواهيه، كما يجب عليهم أن يطيعوا المعصوم ﷺ في جميع ما أمر به أو نهى عنه، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر :٧].

والمنهيات: في وسع جميع الخلق أن ينتهوا عنها، أما المأمورات فقد قرنها الله ﷻ بالاستطاعة: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة :٢٨٦].

الحكم الثاني: في الإعراض عن الشرع:

عدم الاستجابة لأحد أمرين: إما أن يكون جحودًا أو استكبارًا، وهذا كفر بواح، وأصحابه من أهل النار، ولا نجاة لهم إلا بالإسلام.. قال - تعالى -: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف :١٠٣-١٠٦].

وإما أن يكون عدم الاستجابة تكاسلاً مع اعتقاد الحلال والحرام، فهذه كبيرة من الكبائر.. إن تاب المذنب تاب الله عليه، وإن لم يتب فهو في المشيئة إن شاء الله - عفا عنه -، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه. قال الله - تعالى -: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء :٣١].

الحكم الثالث: في التشبه بغير المسلمين:

نهى الله - تعالى - عن مشابهة الكافرين؛ لقوله عز شأنه: ﴿ ولا

تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾. وقد ورد في السنة ما يؤكد هذا النهي.. فقد جاء عن النبي ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[١].

الحكم الرابع: في العقل:

جعل الله - تعالى - العقل شرطًا لوجوب التكاليف الشرعية؛ لقوله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم**»[٢].

والعقل نوعان: عقل دنيوي يعرف به صاحبه ما يصلحه وما يضره ولا تصاحبه نية شرعية، وهذا وهب لجميع الخلق.. وعقل أخروي، وهو الذي يميز بين الخير والشر، والحق والباطل بنية شرعية، وبهذا تكون جميع الأعمال في نطاق العبادة التي أمرنا بها.. قال ﷻ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف :١١٠].

الحكم الخامس: كل شيء بمشيئة الله - تعالى -:

إنه لا يقع شيء في ملك الله ﷻ إلا بمشيئته جل شأنه، قال عز من قائل: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، وقال - جل وعلا -: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج :١٦].

وعلم الله لا بداية له ولا نهاية، وقد أحاط بكل شيء علمًا، فلما علم أنهم معرضون باختيارهم قضى وقدر لهم ذلك، فلم يكن لهم ظالمًا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت :٤٦].

المعنى العام:

أمر الله عباده المؤمنين بطاعته ﷻ وطاعة رسوله ﷺ وذلك بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما.

فالله يطاع لذاته - رب العالمين- ومالك أمرهم. والرسول ﷺ يطاع

---

(١) **حسن صحيح**: رواه أبو داود، كتاب: اللباس، باب: في لبس الشهرة، حديث (٤٠٣١). وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) سبق تخريجه.

في أمر الدين؛ لأنه مبلغ له عن الله - تعالى - ومبين لوحيه بالقول والعمل والحكم.

وهذه الطاعة- أمر تعبدي- لا رأي لأحد فيه، وتتوقف عليه النجاة في الآخرة والفوز بثوابها، كما جاء في قوله - تعالى - :﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء :٦٥].

﴿ ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي: ولا تتولوا عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ﴿ وأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، المصرح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه. والمراد بالسماع: سماع الفهم والتصديق والإذعان، وهذا هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا: ﴿ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ [البقرة :٢٨٥] الموصوفون بقوله - تعالى - :﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر :١٧-١٨]

﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ ثم كرَّر هذا المعنى **(السمع)** وبيَّن مقابله، والذين لا يسمعون فريقان وهما: الكفار المعاندون، والمنافقون. قال - تعالى - :﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ويَقُولُونَ سَمِعْنَا وعَصَيْنَا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ورَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْنًا فِي الدِّينِ ولَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واسْمَعْ وانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وأَقْوَمَ ولَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء :٤٦]

وقال في المنافقين: ﴿ ومِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد :١٦]

والمراد في هذا كله: أنهم لا يسمعون سماع تفقه وانتفاع يتبعه عمل، فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله ﷺ فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾والمعنى: إن شر ما يدب على الأرض- في حكم الله الحق- هم الأشرار من البشر، الذين لم تفد فيهم الآيات والنذر. وهم﴿ صُمٌّ ﴾عن استماع الحق ، ﴿ بُكْمٌ ﴾عن النطق به﴿ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم؛ لأن الله - تعالى - أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة؛ ليستعملوها في طاعة الله فاستعملوها في معاصيه، وعدموا بذلك الخير الكثير، فكانوا بصدد أن يكونوا خير البرية، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا شر البرية.

والسمع الذي نفاه الله عنهم: سمع المعنى المؤثر في القلب، أما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله - تعالى - عليهم بما سمعوا من آياته: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق :٣٧]

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾أي: لو علم الله فيهم استعدادًا للإيمان والهدى؛ لأسمعهم بتوفيقه وعنايته سماع تدبر وتفكر وتفقه، ولكن علم أنه لا خير فيهم؛ لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم. ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا ﴾ عن القبول والإذعان لما فهموا، ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن العمل به، كراهة للداعي إليه، وقد فقد ذلك بإفسادهم لفطرتهم، وإطفائهم لنور الحق والخير[1].

---

(١) قصة عمر بن الخطاب وإيمانه، وقصة تولي الوليد بن المغيرة: نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولي:

يقول عمر بن الخطاب ﷺ فلما سمعت القرآن دق قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام!! وقصة إيمانه ﷺ معروفة .

وقد سمع الوليد بن المغيرة شيئًا من القرآن الكريم فكأنما رق له فقالت قريش: صبأ والله الوليد ولتصبأن قريش كلها .

فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه، و اعتزازه بنسبه وماله، ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره!!!

قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده.....=

= ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلى .

قال أبو جهل: والله لا يرضي قومك حتى تقول فيه فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه؟

فتشرح التقوى صدر عمر للإسلام، وتصد الكبرياء الوليد عن الإذعان . . فتلك صورة من صور التأثر الوجداني لسماع الحق . . كما قال عن القساوسة والرهبان: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾[المائدة: ٨٣] . وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا(١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء ١٠٧- ١٠٩] وقال- عز شأنه -: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾[الزمر: ٢٣] .

إنه السماع المؤثر يلمس الوجدان، ويحرك المشاعر، ويفيض الدموع، يسمعه الذين تهيأوا للإيمان، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان فيقولون: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[الصافات: ١٥]. أو يقولون: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت :٢٦] فصاروا ممن وصفهم الله - تعالى - في سورة المطففين المكية بقوله: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين: ١٤] .

فإن للسماع درجات **(لغير المؤمنين)** باعتبار ما يطلبه الله - تعالى - من الاهتداء بكتابه . .

أسفلها: أن يعمد مَن يُتلى عليه القرآن أن لا يسمعه مبارزة له بالعداوة خوفًا من سلطانه على القلوب ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت: ٢٦] .

يليها من يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويعلم كالمنافقين المشار إليهم في قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[محمد: ١٦] .

ومنهم من يستمع لأجل التماس شبه للطعن والإعراض والصد، كما يفعل المعاندون وكثير من أهل الكتاب وغيرهم .

ويليها من يسمع ليفهم ويعلم، ثم يحكم للكلام أو عليه .

والمنصف منهم: الفريق الأخير، وكم آمن منهم من تأمل وفهم . . منهم طبيب فرنسي معاصر نظر في ترجمة القرآن، فرأى أن كل ما يتعلق بالطب والمحافظة على الصحة، كالطهارة والاعتدال وعدم الإسراف، موافق لأحدث المسائل التي استقر عليها رأي الأطباء في هذا العصر فرغبه ذلك في تأمله كله، فأسلم .

ومنهم مراد هوفمان مفكر إسلامي ألماني يقول: إن سبب إسلامه ثلاثة أشياء:

أولا: روح القتال العالية عند المؤمنين في الحروب .

ثانيا: المعمار الإسلامي وما وراءه من فكر و إبداع .

ثالثا: عندما كان تلميذًا، كانوا يدرسون له التاريخ من بدايته . . عصر الرومان والفرس ، ثم يدرسون له عصر التنوير.. فدرس هذه الفترة التي أسقطوها..... =

= فعلم كيف كانت عظمة المسلمين .. فقرأ في كتاب الله، وأسلم، وألف كتاب (**الإسلام ديانة في صعود**) وأهداه لابنه الذي كان عمره ثماني عشرة سنة . وغيرهم كثيرون .

أما المسلمون:

فأكثرهم يستمعون القرآن يتلى، فلا يستمعون له، ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون: يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات .

ومنهم: من يقصد بسماعه: التبرك فقط .

يقول شيخنا - الأستاذ الشيخ الغزالي - في كتابه (كيف نتعامل مع القرآن): فواقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن مؤرق، وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق، إلى درجة نخشى معها أن نقول، أن علل الأمم السابقة التي حذر منها القرآن، ونبه إليها الرسول ﷺ تسربت إلى العقول المسلمة ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً .

قال ابن القيم - رحمه الله - عن ابن عباس وقتادة في قوله - تعالى -: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ** ﴾ أي غير عارفين بمعاني الكتاب، إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم، وفي كثير من مراكز دروس تعليم القرآن الكريم الآن الطريقة التي يعلم بها يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكير والتفكر . فالجهد كله ينصرف إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف . .

فالإنسان في الدنيا يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ . . لأن الهم كله ينصرف إلى حسن الأداء، وغاية جهده إتقان الشكل . ونحن لا نُهون من أهمية ضبط الشكل، وحسن الإخراج وسلامة المشافهة .

ولكننا ندعو إلى إعادة النظر في الطريقة، حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التي تتوافق مع القراءة . . ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤] .

موقف المسلمين من القرآن الذي شرفوا به يثير الدهشة . . .

من عدة قرون، ودعوة القرآن مجمدة، ورسالة الإسلام كنهر جَفَّ، وبريق خمد سناه . . وقد شكا صاحب الرسالة إلى ربه هذا الكنود، قائلاً: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾ [الفرقان: ٣٠] .

كان الأقدمون الجاهلون يصمون عن سماعه، وأما المتأخرون فهم يسمعون، وقد يتأوهون أو يسكنون، ولكن العقول مخدرة والحواس مبعثرة، ومسالك الأفراد والجماعات في واد آخر وكأنها تنادى من مكان بعيد ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩] يعني: الوعي والإدراك والتذكر والتدبر . .

فأين التدبر؟ ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ [الفرقان: ٧٣] فالأمم الأخرى أدركت حال المسلمين مع كتابهم، لذلك وجدنا إذاعات عالمية تحدد فترات لإذاعات القرآن مثل لندن وإسرائيل وكأنها اطمأنت إلى أن الأمة الإسلامية اليوم تسمع ولا تعي .

النداء الثالث
في الاستجابة للشرع حياة للقلوب والأبدان

قال الله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال :٢٤-٢٦]

صلة الآيات بما قبلها :

لما ذكر - تعالى - في الآيات السابقة حال الكافرين، وشبههم

ويقول شيخنا - الشيخ الغزالي رحمه الله -: قرأت للعقاد مرة، أن هناك ما يُسمي بسعر الحالات النفسية . . وهي أن يرتقي الإنسان مع الكتاب الذي يقرأه، ويرتفع بنفسه إلى الحقائق أو القصص أو المطلوب كي يصورها .

وهذا إن كان مطلوبًا مع الكتب العادية، فهو مع كتاب الله أولى، وهكذا كان الأولون . كانوا يقرءون القرآن فيرتفعون إلى مستواه . أما نحن فنقرأ القرآن فنشده إلى مستوانا، وهذا ظلم للكتاب!!!

ومن ناحية أخري: فإن أثر القرآن في نفس من نزل عليه القرآن يجب أن يُعرف .

فالنبي ﷺ كان خلقه القرآن، ومعروف معني الكلمة أنه كان يعيش في جو قرآني ويصدر من سلوكه قيم القرآن .

وهذا ما جعل الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: إن السنة: فهم النبي ﷺ للقرآن، أو: نضح فهمه للقرآن، فهو مرتبط به في حياته ارتباطًا تامًا في ظاهره وباطنه .

والأمة التي نزل عليها القرآن، فأعاد صياغتها هي المعجزة التي تشهد للنبي ﷺ بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحسن صياغة جيل قدم الحضارة القرآنية للخلق .

فنحن رأينا العرب عندما قرءوا القرآن؛ تحولوا تلقائيًا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الفساد ووجدنا بدويًا كربعي بن عامر رضي الله عنه يقول لقائد الفرس جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنهم فتح جديد للعالم، وحضارة جديدة أنعشت الإنسانية ورفعت مكانها؛ لأن الأمة كانت في مستوى القرآن الكريم .

بالأنعام السارحة؛ لأنهم أعرضوا عن قبول الدعوة الإسلامية، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله وللرسول ﷺ وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ أي: أجيبوا دعوتهما للحق.

﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ : هو الشرع، ففيه حياة القلوب والأبدان جميعًا، كما أن الغذاء الحسي طعام الأبدان وسبب حياتها.

﴿ الْمَرْءِ ﴾ : كلمة تطلق على الرجل والمرأة، مثل كلمة الإنسان، والشخص، والزوج.

﴿ قَلْبِهِ ﴾ : القلب هو سيد الأعضاء، فإن استقام استقامت وإن اعوج اعوجت.

﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: تجمعون للعرض والحساب والجزاء.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ أي: اجتنبوا ما يحدث الفتن كترك الأوامر، وفعل النواهي[1].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: الألف واللام في كلمة (**الرسول**) للعهد، والمراد به: الرسول الكامل ذو الرسالة العامة: محمد ﷺ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء :١٠٧]

الثانية: سبق الدعوة بأداة الشرط (**إذا**) إشارة إلى أن الدعوة تتكرر ما عاش المدعوون، كما أن ثمرتَها مستمرة وذلك مفهوم من قوله - تعالى - ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

الثالثة: كلمة (**المرء**) مبدوءة بـ (**أل**) التي هي للجنس، فتشمل الكلمة جميع أفراد الخلق، فإرادة الله نافذة، والله غالب على أمره،

(١) راجع هذه المواد في لسان العرب .

ولا يلام المرء إلا على كسبه ونيته اللذين يخالفان الشرع.

الرابعة: في تقديم الجار والمجرور (**إِلَيْهِ**) على الجملة الفعلية (**تُحْشَرُونَ**) يفيد القصر، ومعنى هذا: أن حشر جميع الخلائق إلى الله لا إلى غيره، ولا يستطيع أحد أن يمتنع عن داعي الحق، كما قال ﷻ: ﴿ ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس :٥١].

الخامسة: التنكير في كلمة (**فتنة**) للتعظيم، والتحذير من الوقوع في أسبابها أعظم، إلا أن المعاناة من هذه الفتنة متفاوت بتفاوت الواقعين فيها، كل بحسب ذنبه ﴿ ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف :٤٩].

السادسة: أن وقوع الظلم من بعض المؤمنين هو الذي يجلب الفتنة التي تعم الجميع، ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران :١٦٥]، ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى :٣٠] أما وقوع الظلم من غير المؤمنين فلا يلحق المؤمنين أثره؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام :١٦٤].

السابعة: الألف واللام في كلمة (**الأرض**) للعهد، لو قصد بالآية حالة المسلمين قبل الهجرة أو في بداية العهد النبوي، وقد يراد بها [١] قرب قيام القيامة، حين غربة الإسلام فتكون الألف واللام للجنس، والله أعلم.

الأحكام الفقهية:

الحكم الأول: في طاعة الشرع:

يجب على كل من هو أهل للتكليف، أن يستجيب لدعوة الشرع، بعد أن أقيمت عليه الحجج؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ فَلا وربِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء :٦٥].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ أنه قال:

---

(١) أي: بالأرض.

كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجب حتى صليت، ثم أتيته، فقال: «**ما منعك أن تأتي؟**» فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟**» ثم قال: «**لأعلمنك سورة هي من أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**».

ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: يا رسول الله، ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»[(١)].

ودعوة الشرع للمكلفين إلى الحياة بكل معانيها؛ فقد جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها بقعة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء، فنفع الله ﷻ بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً...**»[(٢)].

الحكم الثاني: في الإيمان بالحشر:

شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة، ومن أركانها الأساسية التي لا ينعقد الإيمان إلا بها: الإيمان باليوم الآخر، بما فيه من مراحل متعددة كالبعث والحشر والحساب والجزاء... إلخ. ومن لم يؤمن بذلك فهو من الدهريين الكافرين، وقال - تعالى-: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية :٢٤]. وفي حديث جبريل - عليه السلام -: «**.. ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري: كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، حديث (٥٠٠٦)، وأبو داود، حديث (١٤٥٨)، والنسائي، حديث (٩١٣)، وأحمد في مسنده (٤٥٠/٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب: العلم، باب: فضل من علم وعلم، حديث (٧٩)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ، حديث (٢٢٨٢)

(٣) سبق تخريجه.

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

الحكم الثالث: في أسباب الفتن:

أسباب الفتن كثيرة، ومن أبرزها: الانخراط في الذنوب والآثام، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا سقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقًا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا**»[(١)].

الحكم الرابع: في ذكر النعم:

وذكر النعم له مجالات ثلاثة:

فمن القلب: الاعتقاد بأن جميع النعم مردها إلى رب العالمين: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ومن اللسان: الإقرار باللسان.. ففي الحديث: «**الطهور شطر الإيمان، وسبحان الله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة، حديث (٢٤٩٣)، والترمذي، حديث (٢١٧٣)، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

ومن الجوارح: الامتثال لأمر خالقها ونهيه. فتلزم حدود الطاعة وتجتنب المعاصي كافة، ولما كان كثير من الخلق يظنون أن النطق باللسان كاف في ذكر النعم وشكرها قال الله - تعالى -: ﴿.. وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ :١٣].

الحكم الخامس: في تحقيق الأمن:

وتحقيق الأمن: أساسه الإيمان والعمل الصالح، وقد تحقق ذلك للمؤمنين بعد إيمانهم وتمسكهم بما شرعه الله ورسوله ﷺ لهم، قال - عز شأنه -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام :٨٢].

وقد كانوا في الجاهلية في غاية الذلة والضعف يتوقعون التخطف والإغارة عليهم، فأعزهم الله بالإسلام وبدل خوفهم أمنًا، وذلهم عزًّا، قال ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت :٦٧].

المعنى العام:

يا أيها الذين آمنوا إذا علمتم ما فرض الله عليكم من الطاعة والتفقه في الدين، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله لما يحييكم فأجيبوا الدعوة بعناية وقوة، فهو كقوله - تعالى -: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة :٦٣].

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ والحياة: حياة العلم بالله، وسننه في خلقه، وأحكام شرعه، وقيل: المراد بالحياة: الجهاد في سبيل الله. وقيل: هي الإيمان والإسلام. وقيل: هي القرآن. ولا شك أنه ينبوعه الأعظم، والهادي إلى سبل الحياة من سنة رسول الله ﷺ فهو القدوة والرحمة؛ ولأن طاعته مقترنة بطاعة الله - تعالى - في كثير من آيات القرآن الكريم[1].

وقد جاءنا من الله علم وهدى، مثله كمثل الغيث المبارك، والناس الذين جاءهم هذا العلم وهذا الهدى كالأرض التي ينزل عليها الغيث.

---

(١) مثل قوله - تعالى -: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقلوب الناس حسب طبيعتها من تلقي هذا الهدى والعلم صدودًا وإقبالاً، وقلة وكثرة. وكذلك الأرض من أعماق وأودية، تتلقى الماء حسب طبيعتها- أيضًا- من سعة وضيق.

وما كان من الحكمة أن ينْزل الله ﷻ للأجسام ما به تحيا وتتغذى، ثم يهمل شأن الروح، الذي هو كل شيء في ذلك الكائن الحي.

إن حياة النفوس في هدى الله ﷻ، كما أن حياة الأرض فيما أنزل الله لها من ماء، ومحال أن تجد الأرض ريًّا تحيا به غير الماء !! لا تجده في ذهب ولا فضة، ولا هواء ولا نار، ولا غير ذلك، إنما تجده في الماء - فقط- ولا شيء غير الماء، كذلك النفس.

إننا نجد كثيرًا من آيات القرآن الكريم التي وردت في إحياء الأرض- بعد موتها- آيات مسبوقة، أو ملحوقة، بما يشير إلى إحياء النفوس وزكاة القلوب. قال الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد :١٦).

والمراد - والله أعلم- أرض القلوب والنفوس، فإنه يذكر- بعد ذلك- مباشرة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الحديد :١٧). والآيات كثيرة في إحياء القلوب والنفوس، قال - عز شأنه -: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام :١٢٢).

والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية...﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: أجيبوا طائعين مختارين لما يصلحكم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ : هذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علمًا يقينيًا؛ لما لهما من الشأن في مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الإنسانية العليا التي فيها سعادة الدنيا والآخرة:

الأمر الأول: أن من سنة الله - في البشر- الحيلولة بين المرء وبين قلبه، الذي هو مركز الوجدان والإدراك - ذي السلطان- على إرادته

وعمله، يصرفه كيف يشاء، ويقلبه كما يريد، وصاحبه لا يملك منه شيئًا، وهو قلبه الذي بين جنبيه.

وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه، إذا غفل عنها، وفرط في جنب ربه.

كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف عليها إذا لم ييأس من روح الله فيها. فهذه الجملة أعجب جمل القرآن، ولعلها أبلغ في التعبير، وأجمعها لحقائق النفس البشرية، وعلم الصفات الربانية، وعلم التربية الدينية، بما تثمر من الخوف والرجاء.

قال الله - تعالى -: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان :٤٤]. على أنه فيه مختار، فلا جبر ولا اضطرار [١].

وهذه السنة القلبية - من سنن الله تعالى- في الإرادات والأعمال، وأمره إيانا بأن نعلمها علم يقين يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان؛ وهما:

أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله، فيغتر بطاعته، ويعجب

---

(١) ويقابل هذا من الحيلولة ما حكي بعضهم عن نفسه: أنه كان منهمكًا في شهوته، فنَزل يومًا في زورق مع خِلان له في نهر دجلة للتنزه، ومعهم النبيذ والمعازف. فبينما هم يعزفون ويشربون، إذ التقوا بزورق آخر فيه تالٍ للقرآن يرتل سورة: ﴿إذا الشمس كورت﴾ [التكوير: ١] فوقعت تلاوته في نفسه موقع التأثير والعظمة، فاستمع له وأنصت، حتى بلغ قوله - تعالى -: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ [التكوير: ١٠] امتلأ قلبه خشية من الله، ونذيرًا لإطلاعه علي صحيفته يوم يلقاه، فأخذ العود من العازف فكسره وألقاه في دجلة، وألقى النبيذ وكؤوسه فيها، وصار يردد الآية، وعاد إلى منزله تائبًا من كل معصية. (**تفسير المنار**) وخير شاهد على هذا - إسلام عمر بن الخطاب ﷺ في مثل لمح البصر، ثم هذا التحول الهائل العظيم، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى !!! رجل كان يقف في أقصى مجاهل الوثنية وقصة الوليد ابن المغيرة، فقد سمع شيئًا من القرآن الكريم، فكأنما رق له، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلهم، فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنفسه وماله، ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره.. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. فلما نكر، قال: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ [المدثر: ٢٤] أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه؟

بنفسه.

وأن لا ييأس العاصي والمقصر- في الطاعة - من روح الله، فيسترسل في إتباع هواه، حتى تحيط به الخطايا.

ومن لم يأمن عقاب الله، ولم ييأس من رحمة الله، يكون جديرًا بأن يراقب قلبه، ويحاسب نفسه على خواطره، ويعاقب نفسه على هفوته؛ ليظل على الصراط المستقيم، متجنبًا الإفراط والتفريط، ويتحرى أن يكون دائمًا بين خوف يحجزه عن المعاصي، ورجاء يحمله على الطاعات. ويساعدنا على ذلك:

الأمر الثاني: وهو تذكر حشرنا إليه ﷻ ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه، وهذا يستوجب اليقظة الدائمة.

قال الراغب: تقليب الله القلوب: صرفها من رأي إلى رأي.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [1] [الأنعام: ١١٠].

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ أي: واتقوا الفتنة أيا كان نوعها؛ لأنها لا تصيب الظالمين خاصة، بل تصيب فاعلها وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم، ولم يغيره أحد من المسلمين. وتتقى الفتن بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن، فهي عامة إلى يوم القيامة؛ لأنها بيان لسنة من سنن الله -

---

(١) روى البخاري وغيره من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: كانت يمين رسول الله ﷺ: ((**لا ومقلب القلوب**)).

وقال الإمام أحمد عن أم سلمة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه بقوله: ((**اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي علي دينك**)). قالت: فقلت يا رسول الله، أو أن القلوب لتقلب؟ قال: نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله ﷻ، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. قالت: فقلت يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: قولي: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني. [المسند٦/٣٠١، ٣٠٢].

تعالى -.

﴿ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه ﴿ واذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ ﴾ قيل: إن هذا الخطاب للمهاجرين يذكرهم بضعفهم وقلتهم بمكة. وقيل: إنه للمؤمنين جميعًا في عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعف أمتهم العربية - في جزيرتهم- بين الدول القوية من الروم والفرس، ولا مانع فيه من إرادة هذا وذاك.

قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدّي في النار، يؤكلون ويأكلون، والله ما نعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منْزلاً منهم، حتى جاء الإسلام، فمكن به البلاد، ووسع به الرزق، وجعلهم ملوكًا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم، وأهل الشكر في مزيد من الله [1].

قال - تعالى - في أهل الحرم: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت :٦٧].

ومن العبر في الآيات: أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الإسلام إصلاحًا أورث ويورث من اهتدى به إلى السعادة في الدنيا والسيادة والسلطان قبل الآخرة.

ولكن أعداءه الجاهلين والجاحدين لهذا العلم قد شوهوا تاريخه، وصدوا الناس عنه بالباطل، وأن أهله قد هجروا كتابه، وتركوا هدايته، وجهلوا تاريخه، ثم صاروا يقلدون أولئك الأعداء في الحكم عليه حتى زعموا أنه هو سبب جهلهم وضعفهم وزوال ملكهم الذي كان.

والجماعة المسلمة اليوم، التي تجاهد لإعادة إنشاء هذا الدين في بقاع

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٥٨١ .

الأرض، وفي حياة الناس. قد لا تكون مرت بما مرت به الجماعة التي كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة - بما كان من ضعفها وقلة عددها -وبما كان من الأذى والخوف.

ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك، ولئن كانت - اليوم - تعيش في معنى قوله - تعالى -: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾.

فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها الرسول ﷺ وأن تترقب في يقين وثقة وعد الله - تعالى - الذي حققه للجماعة الأولى، ووعد بتحقيقه لكل من يستقيم على طريقه، ويصبر على تكليفه، وأن ينتظر الوعد الإلهي في قوله - تعالى -: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- في الاستجابة للشرع الإسلامي: السعادة في الدارين.

٢- أن إرادة الله غالبة، وأن يوم القيامة حق.

٣- المعاصي والمخالفات سبب ظهور الفتن وانتشارها.

٤- أن نعم الله - تعالى - يجب أن تشكر.

٥- أن وعد الله بالنصر والتمكين متحقق للمؤمنين.

* * *

النداء الرابع
تحريم الخيانة

قال الله - تعالى -:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨].

صلة الآيتين بما قبلهما:

أمر الله - تعالى - جميع الخلق بحفظ الأمانة لكن المشركين قد خانوها بكفرهم واضطهادهم للمؤمنين. ﴿واذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ وهنا أمر المؤمنين بحفظ الأمانة وعدم خيانتها، كما فعل المشركون.

معاني المفردات والتراكيب:

﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾: وذلك بعدم الائتمار بالأوامر، والانتهاء عن النواهي.

﴿وتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ أي: تتهاونوا في حفظ الأمانات التي ائتمنتم عليها فيما بينكم وبين الخلق.

﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء، فإن وُجِّهوا فيما يُرضي الله ﷻ كانت الأموال والأولاد نعمة، وإن لم يُوجهوا التوجيه الإسلامي كانوا نقمة [1].

من لطائف القرآن الكريم:

الأولى: النهي عن الخيانة بصيغة المضارع ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا..﴾ فيه إشارة إلى أن النهي مستمر ما عاش المكلفون إلى أن يلقوا ربّهم ﷻ.

الثانية: جاءت كلمة ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن الأمانات

(١) راجع هذه المواد اللغوية في لسان العرب.

كثيرة، إذ أن كل شعبة من شعب الإيمان، المكلف مؤتمن عليها؛ بمعنى أن يؤديها أداءً شرعيًّا على الوجه الشرعي الصحيح، فكانت صيغة الجمع أنسب.

الثالثة: في اقتران النهي بالعلم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن الجهل عذر شرعي، ويؤكد هذا قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

الرابعة: في تصدير قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بالأموال، نظرًا لأهميتها في الدين والدنيا إذ أن كثيرًا من شعب الإيمان يدخل في إحيائها وإقامتها المال الصالح: كالزكاة، والصدقات، والزواج، والحج، والعمرة، وصلة الرحم، وحق ابن السبيل... إلخ.

الخامسة: في تنكير كلمة (فتنة) إفادة التعظيم؛ وذلك أن الافتتان بالأموال والأولاد عظيم جدًّا، وكثير من الناس ضلّوا الطريق من جراء الأموال وجمعها، والأولاد والإفراط في حبهم حتى قصَّروا في كثير من شعب الإيمان. لذا كان من المناسب أن تختتم الآية بقوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ حتى يناسب هذا التذييل مَن وفقهم الله - تعالى - في هذا الابتلاء، وخرجوا منه بما يرضي الله - تعالى -.

سبب النزول:

ورد في سبب نزول هذا النداء بالنهي عن الخيانتين هنا من حديث جابر ﷺ أنّ أبا سفيان خرج من مكة، وكان لا يخرج إلا في عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين، فأعلم الله رسوله بمكانه، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: أن محمدًا يريدكم فخذوا حذركم، فأنزل الله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

وفي عدة روايات عن عبد الله بن قتادة، والزهري، والكلبي، والسدّي، وعكرمة: أنها نزلت في أبي لبابة ﷺ فإنه كان حليفًا لبني قريظة من اليهود، فلما خرج إليهم النبي ﷺ بعد إجلاء إخوانهم بني

النضير، أرادوا بعد طول الحصار أن ينْزلوا من حصونهم على حكم سعد بن معاذ، وكان سعد من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد رسول الله ﷺ.

فحذرهم أبو لبابة من فتح حصونهم، والنُّزول على حكم سعد بن معاذ؛ لما كان له من الاعتماد عليهم في حفظ ماله وولده. فأشار إليهم بأن لا يفعلوا، وأشار إلى حلقه أن سعدًا يحكم بذبحهم، فنَزلت الآية، قال أبو لبابة: ما زلت قدماي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله.

وفي رواية: أنه قد وضع ماله وولده عندهم، فأومأ بيده إلى الذبح، فأنزل الله الآية، فقال رسول الله ﷺ لامرأة أبي لبابة: «**ايصوم ويصلي ويغتسل من الجنابة؟** فقالت: إنه ليصوم ويصلي ويغتسل من الجنابة، ويحب الله ورسوله. والمراد: أن النبي ﷺ شك في إيمانه، حتى إنه سأل امرأته، هل يقوم في بيته بواجبات الإسلام ؟ فأجابته بصيغة التأكيد التي يجاب بها من أظهر شكه.

ولينظر المعتبر كيف عاقب أبو لبابة نفسه توبة إلى الله - تعالى - إذْ شدَّ نفسه على سارية من المسجد وقال: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خر مغشيًا عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك. فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده.

ومهما ورد من سبب للنّزول، فالآية عامة، تشمل كل خيانة، ولذلك فسَّر ابن عباس خيانة الله: بترك فرائضه وارتكاب معاصيه. والأمانة: بكل ما ائتمن عليه العباد بأن لا ينقصها [1].

المعنى العام :

يأمر - تعالى - عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله - تعالى- ﴿عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(١) جامع البيان: الأثر ١٥٩٢٢ (١٣/ ٤٨٠).

والله ﷻ قد عظم أمر الأمانة في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والأمانة من الصفات الدينية التي قام عليها بناء المدينة، وبها حفظ الله العمران، ولا صلاح لأمة، ولا بقاء لدولة بدونها؛ لأن عليها مدار الثقة في جميع المعاملات.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة، وتحريم الله تعالى إياها، وسوء عاقبة تلك المفاسد في الدنيا والآخرة. أو: تعلمون ما فعلتموه، وأن من لم يؤدها: استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله ورسوله ﷺ؛ ولما كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حملته محبتهم على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته؛ فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فهو سبحانه يعلم مواطن الضعف في البشر، ويعلم أن الحرص على الأموال والأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها. لقد وهب الله للناس الأموال والأولاد ليبلوهم بها ويفتنهم فيها، فهي من زينة الحياة الدنيا التي تكون موضع امتحان وابتلاء؛ ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه، أيشكر عليها ويؤدي حق النعمة فيها؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟!!

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾: إن الفتنة لا تكون بالحرمان والشدة وحدهما، أنها تكون - كذلك- بالرخاء والعطاء، يمتحن الله المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويحاسبهم ويجازيهم بما يترتب على فتنتهم من إتباع الحق أو الباطل، وعمل الخير أو الشر.

وفتنة الأموال والأولاد عظيمة، لا تخفى على ذي فهم، إلا أن الأفهام تتفاوت في وجوهها وطرقها، فأموال الإنسان عليها مدار الحياة، والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس كالسماحة والسخاء، وهما من أركان الفضائل، ولجميع أنواع الإمساك: البخل، وهو من أمهات الرذائل، ولكل منها: درجات ودركات!!!

وأما الأولاد، فهم كما يقول الأدباء: ثمرة الفؤاد، وأفلاذ الأكباد، وحبهم ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والآباء، فيحملهما على بذل كل ما يستطاع بذله في سبيلهم من مال وصحة وراحة وغير ذلك، بل روى أبو سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا إلى سيد الحكماء، وخاتم الأنبياء ﷺ: «**الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة**»[1].

فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم والإنفاق عليهم وجمع الثروة لهم. يحملهما ذلك على الجبن - عند الضرورة- عن الدفاع عن الحق، وعلى البخل بالزكاة والحقوق الثابتة، كما يحملهما الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب، والاعتراض عليه، وغير ذلك من المعاصي.

ففتنة الأولاد لها جهات كثيرة، فهي أكبر من فتنة الأموال، وفتنة الأموال قد تكون جزءًا من فتنة الأولاد. فتقديمها وتأخير فتنة الأولاد من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى.

فالواجب على المؤمن: اتقاء خطر الفتنة الأولى، بكسب المال من حلال، وإنفاقه في حلال في سبيل البر والإحسان، واتقاء الحرام من الكسب والإنفاق.

واتقاء خطر الفتنة الثانية، مما يتعلق منها بالمال وغيره، وبما أوجب الله على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل، وإبعادهم عن المعاصي، وما يؤدي إليها. قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

ويلوح الله بما هو خير وأبقى، ليستعان به على الفتنة ويُتقى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم، وهو:

---

(١) **صحيح**: رواه أبو يعلى بلفظه (٣٠٥/٢)، حديث (١٠٣٢)، ورواه الحاكم بلفظ: ثمرة القلب (١٧٩/٣)، حديث (٤٧٧١)، والطبراني في الكبير (٣٢/٣)، حديث (٢٥٨٧) . وصححه الألباني رواية أبي يعلى في صحيح الجامع (٧١٦٠) . دون قوله: ثمرة القلب . فهو ضعيف، وباقي الحديث صحيح في صحيح الجامع (١٩٩٠) .

إيثار ما عند الله ﷻ من الأجر العظيم.

وقد أسقطت الخيانة دُولاً كانت أعظم دول الأرض قوة وبأسًا، بارتكاب أفرادها الرشوة من أهلها ومن الأجانب، حتى مُسخت فصارت دويلات صغيرة فقيرة[1].

على أن للمؤمن الصادق حسن قدوة بأبي لبابة - في توبته النصوح- إذا ألم به ضعف فوقع في مثل هفوته، أو ما دونها من خيانة[2].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- النهي عن الخيانة؛ لأنها من كبائر الذنوب.

٢- الأمانات متعددة؛ منها ما هو بين العبد وربه ﷻ، ومنها ما هو بين العبد وبين بقية المخلوقين.

٣- اقتراف الذنب مع العلم به، أشد وأقبح من اقترافه مع الجهل.

٤- التكاليف الشرعية مبنية على الابتلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٥- إثبات مبدأ الوعد والوعيد ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن، تفسير القرآن العظيم ٥٨١/٢ .

(٢) المرجع السابق .

النداء الخامس
من ثمار التقوى

قال الله ﷻ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الأنفال: ٢٩].

صلة الآية بما قبلها :

لما ذكر الحق ﷻ أن الأموال والأولاد فتنة، وأن من أرضى الله في هذا الابتلاء، وهبه الله أجرًا عظيمًا، حض في هذه الآية على الاتصاف بالتقوى، التي هي: الائتمار بالأوامر، والانتهاء عن النواهي، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾: أصل التقوى: مأخوذ من مادة **(و ق ى)** التي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره [١]. وقول المصطفى ﷺ : «**اتقوا النار ولو بشق تمرة..**» [٢].

أي: اجعلوا شق التمرة وقاية بينكم وبين النار، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[الزمر: ٢٤]. وفيه تنبيه على شدة ما ينالهم، وأن أجدر شيء يتقون به عذاب يوم القيامة هو وجوههم [٣].

وقال الراغب: التقوى حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات، لما روي: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه**» [٤].

---

(١) لسان العرب مادة **(و ق ى)** .

(٢) رواه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: اتقوا النار لو بشق تمرة، حديث (١٤١٧)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة، حديث (١٠١٦)، والنسائي، حديث (٢٥٥٢) .

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٤/ ١٠٨٠ .

(٤) سبق تخريجه .

﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ : الفرقان في أصل اللغة: الفصل بين الشيئين أو الأشياء، وقد أطلق الفرقان على أشهر الكتب الإلهية؛ وهي: التوراة والإنجيل والقرآن، وقد غلب على القرآن. قال - تعالى -: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. وذلك أن كلام الله - تعالى - يفرق في العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، وفي الأحكام بين العدل والجور، وفي الأعمال بين الصحيح والفاسد، والخير والشر.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: في التعبير عن التقوى بإن الشرطية ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ إشارة إلى أن التقوى من الدرجات العالية في الإيمان التي لا ينالها إلا القلة من عباد الله الصالحين، وأن النفس كثيرًا ما تمنع صاحبها عن السير في طريق الكمال ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

الثانية: مجيء كلمة (**فُرْقَانًا**) نكرة، تفيد التعظيم، وذلك أنه المنهج الحق في سبيل مرضاة الله - تبارك وتعالى -والتعرض لرحمته وثوابه، قال ﷻ: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الأحكام الفقهية :

الأول: حكم التقوى :

التقوى: واجب من الواجبات، بل هي أعظم الفروض العينية، وهي الأساس لكل خير، والابتعاد عن كل شر، وبدونها لا تقوم للإسلام قائمة في قلب المسلم.

وقد جاء الأمر بها في القرآن الكريم كثيرًا، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله - عز شأنه -: ﴿ يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩].

الحكم الثاني: في الأسباب الشرعية :

أراد البارئ ﷻ أن يقرن الأسباب بمسبباتها، فلا تواكل، ولا تراخٍ، ولا اعتماد على التمني، بل هو توكل صادق، واجتهاد في نطاق الوسع، وحسن ظن في الله - تعالى - وانتظار الثواب من فضل الله ورحمته، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله - جل وعلا -: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر]، وفي الحديث: «**ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل...**»[(١)].

الحكم الثالث: في التوبة :

قد أمر الإسلام بالتوبة في آيات كثيرة، وذلك أن أخطاء الآدميين كثيرة ولا فكاك من آثارها إلا بالتوبة النصوح، وهي صورة من صور التقوى.

قال - عز شأنه -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[التحريم: ٨] وقوله ﷻ: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور: ٣١]، وقول الله - سبحانه -: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة: ١١٢].

المعنى الإجمالي :

ينادي الله عباده المؤمنين ويحضهم على التقوى[(٢)] فهي عنوان

---

(١) **موضوع** : رواه ابن أبي شيبة بنحوه في مصنفه (١٦٣/٦)، حديث (٣٠٣٥١)، والبيهقي في الشعب (٨٠/١)، حديث (٦٦)، وابن أبي عاصم في الزهد (٣٦٣/١) . وانظر: بمعناه: الدر المنثور ١٠٠/٦، وتاريخ بغداد ٢٥٥/١ . وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٨٠) : موضوع .
قلت : ولكن صح من كلام الحسن - رحمه الله تعالى- .

(٢) ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التي تعرض له، من علم وحكمة وعمل..... =

السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها :

الأول: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع: يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه [1]، وآثر رضاه على

= فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه .

فكل متق لله في شيء يؤته فرقانًا فيه، وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن تبعهم من حكام العرب أعدل حكام الأمم في الأرض في عهد الفتح .

قال بعض حكام الإفرنج: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب .

فهذا الفاروق: أقام في المدينة حكومة إسلامية مثالية، بَهرت أنظار الخلق أجمعين، يسمع أنينًا ينبعث من الليل من صبية يتضوعون جوعًا، يتحلقون حول عجوز، والعجوز تدعو علي عمر، وتشكوه إلى الله، فيحمل لها الدقيق والزيت علي ظهره، ويأبى أن يحمل عنه أحد ذلك، بحجة أن أحدًا لن يحمل عنه ذنوبه يوم القيامة . ويجوع عمر في عام الرمادة كما يجوع الناس، لقد كان عمر مثال الحاكم العادل؛ ولذلك أسماه المصطفى ﷺ الفاروق بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل .

(١) من الأسباب الموصلة للتقوى: صحبة الصالحين، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: آخ الإخوان قدر التقوى، ولا تجعل حديثك بذله عند من لا يشتهيه، ولا تضع حاجتك إلا عند من يحب قضاءها .

وقد بشر الله المتقين ببشارات عديدة منها: العون والنصر، والتكريم، والعلم، والحكمة، وتكفير الذنوب، وتعظيم الأجر والمغفرة، واليسر والسهولة في الأمر، والخروج من الغم والمحنة، ومنها: الرزق الواسع في الدنيا، والنجاة من العقوبة في الآخرة، ومنها التوفيق والعصمة والفوز بالمراد، وشهادة الله لهم بالصدق، ومحبة الله، ومنها: المقام الآمن، والجنات والعيون، والأمن من البلية، وعز الفوقية، وزوال الحزن والخوف من العقوبة، والزوجات الحسان (**الكواعب الأتراب**) في الجنان . وأعظم من هذا كله: القرب من الحضرة الإلهية عند الفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر.

[بصائر ذوي التمييز ٥/٣٠٠- ٣٠٣، موسوعة نضرة النعيم ٤/١٠٨١] .

﴿ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ : وأعظم فضله هذا الجزاء العظيم..... =

هوى نفسه والله ﷻ صاحب الفضل العظيم على الخلائق أجمعين.

* * *

= هذا هو الزاد، وهذه عدة الطريق التي تحي القلوب وتوقظها، إنه العطاء الذي لا يعطيه إلا الرب الكريم ذو الفضل العظيم.

النداء السادس
أسباب النصر

يقول الله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[الأنفال: ٤٥، ٤٦].

صلة النص بما قبله :

لما ذكر الحق ﷻ التقاء الجمعين في غزوة بدر في الآيات السابقة: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الأنفال: ٤١]، شرع في حض المؤمنين على الثبات في سائر مواقف الجهاد فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ لَقِيتُمْ ﴾ : اللقاء: هو القتال بنية الجهاد.

﴿ فِئَةً ﴾ : أي: جماعة، وغلبت في جماعة المقاتلين، ولم يستعمل في التنزيل إلا بهذا المعنى: قال - تعالى -: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾[النساء: ٨٨]. فإن المختلفين في شأنهم (فئتان)، منهم من كان يقول بقتلهم؛ لظهور نفاقهم، وبقائهم على شركهم، ومنهم من يقول بضده، فهي في موضوع القتال، ومن ذلك قوله - تعالى - في سورة الكهف: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[الكهف: ٤٣].

﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ أي: لا تفروا - إلا لضرورة - حتى يتحقق النصر.

﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح: هو الظفر بالمطلوب شرعًا.

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ التنازع: الاختلاف.

﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ أي: تجبنوا وتُهزموا.

﴿ رِيحُكُمْ ﴾ أي: قوتكم وبأسكم.

﴿ بَطَرًا ﴾ أي: كبرًا واستعلاءً على الحق واحتقارًا للناس.

﴿ ورِئَاءَ ﴾ أي: رياءً لا إخلاص فيه [١].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: في التعبير عن الجهاد بأداة الشرط إذا: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ ﴾ : إشارة إلى أنه ماضٍ إلى يوم القيامة، ومن زعم أنه توقف فقد افترى على الله الكذب.

الثانية: مجيء كلمة (فئة) نكرة؛ لإفادة التكثير، وإذا كان الثبات أمام الكثيرين واجبًا، فإن الثبات أمام القلة من الأعداء أيسر وأسهل.

الثالثة: الذكر الكثير: أن يجعل المرء الله - سبحانه وتعالى - في كل عمل ابتداءً وانتهاءً، سواء كان المقصد محسوسًا كالصلاة والزكاة، أم غير محسوس كالتعفف عن المعاصي وما يسبقها أو يتبعها من مخالفات.

الرابعة: لم يجزم بالفلاح في قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : حتى لا يغتر عامل بعمله؛ ولأن الفلاح ليس مترتبًا على العمل، بل بفضل الله ورحمته؛ لقوله ﷺ : «**اعملوا وقاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**» [٢].

الخامسة: بعد أن أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، ونهاهم عن التنازع المؤدي إلى الفشل والهزيمة وذهاب القوة والبأس، ثم ختم الآية

---

(١) راجع المواد اللغوية في لسان العرب .

(٢) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، حديث (٦٤٦٣)، ومسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل الجنة أحد بعمله، حديث (٢٨١٦)، وابن ماجه، حديث (٤٢٠١) .

بالأمر بالصبر ﴿ واصْبِرُوا إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ؛ لأن هذه الأمور من أوامر ونواهٍ لا تتم لأصحابها إلا بالصبر، كما قال عز شأنه: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ ﴾ [العصر].

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: في الثبات عند اللقاء :

أوجب الحق ﷻ على المؤمنين الثبات أمام الأعداء، وجعل الفرار بلا عذر شرعي كبيرة من الكبائر، قال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) ومَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ [الأنفال :١٦، ١٥].

وقول الرسول ﷺ : «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[1].

الحكم الثاني: في ذكر الله - تعالى - :

من الذكر ما هو واجب كالصلاة وما تشتمل عليه، والزكاة وما يرتبط بها حتى تؤدى، والحج ونحو ذلك. قال - تعالى -: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. ومنه ما هو غير واجب، بل من فضائل الأعمال كأذكار الصباح والمساء، والأذكار عقب كل صلاة وتلاوة القرآن.. إلخ. قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ والذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

الحكم الثالث: في طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ :

طاعة الله ﷻ واجبة وكذا طاعة الرسول ﷺ، إذ لا يعرف المرء ما شُرع له وهو غير مشروع إلا عن طريقهما، وقد جاء الأمر بطاعتهما في آيات كثيرة؛ منها قوله - جل وعلا -: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ ﴾ [النور: ٥٤].

---

(١) سبق تخريجه .

وقوله - جل وعلا -: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]، وقوله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

الحكم الرابع: في تجنب النزاع والشقاق:

ومما جُبِلَ عليه الآدميون: الخلاف والنزاع، قال - تعالى -: ﴿ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩، ١١٨]، إلا أن الشرع حرمه؛ لما يترتب عليه من إفساد ذات البين، وضياع الهيبة في نفوس الأعداء، وفرقة الشمل، وذهاب الكلمة، فيصبحوا أثرًا بعد عين. قال سبحانه: ﴿ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال عز شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. كما نهى عنه النبي ﷺ: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[(١)]. وقال - جل وعلا - مبينًا عواقب الاختلاف: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

الحكم الخامس: في وجوب الصبر:

إذ لا يتيسر للمرء أي عمل شرعي: اعتقادًا أو أمرًا أو نهيًا، إلا بالصبر الجميل، وقد جاء الأمر به في آيات كثيرة؛ منها قوله - تعالى -: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وقال - جلت حكمته -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفي الحديث: «**... الصبر ضياء**»[(٢)]. وقوله ﷺ لآل ياسر حينما كانوا يعذبون: «**صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها، حديث (٤٣٢)، وأبو داود، حديث (٦٧٤)، والترمذي، حديث (٢٢٨)، والنسائي، حديث (٨٠٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤٣٢/٣)، حديث (٥٦٤٦)، والطبراني في الكبير (٣٠٣/٢٤)، حديث (٧٦٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٩٣/٩)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

الحكم السادس: في البطر وتوابعه :

وهذه كبائر ثلاث؛ فالبطر كراهية الحق ودفعه وهو عين الكبر، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر[١]. والرئاء هو: الرياء، وهو محبط للعمل؛ لأنهم ما خرجوا دفاعًا عن حق مهضوم، بل خرجوا ابتغاء الشهرة والجاه عند الخلق وذلك محبط للعمل؛ لحديث: «**إن أدنى الرياء الشرك**»[٢]. وقال - تعالى -: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

والبغي: هو التعدي على الغير وإبطال حق من حقوقه ومن أقبحه: صد الخلق عن سبيل الله - تعالى - وصرفهم عنه. قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

المعنى العام :

يرشد الحق ﷻ المؤمنين إلى الأخذ بالقوة المعنوية للقتال؛ التي هي السبب الغالب في النصر.

ولم يصف الفئة المعادية للعلم من قرينة الحال: وهي أن المؤمنين لا يقاتلون إلا الكفار؛ والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار في القتال، فاثبتوا لهم، ولا تفروا من أمامهم.

فإن الثبات قوة معنوية، طالما كانت السبب الآخر للنصر والغلب بين الأفراد، أو الجيوش، فأثبت الفريقين أغلبهما[٣].

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، حديث (٩١)، والترمذي، حديث (١٩٩٩)، وأبو داود، حديث (٤٠٩١)، وابن ماجه، حديث (٥٩).

(٢) **ضعيف جدًا:** رواه الحاكم في المستدرك (٣٠٣/٢)، حديث (٥١٨٢)، والطبراني في الكبير (٣٦/٢٠)، البيهقي في الزهد (١١٢/٢)، حديث (١٩٥). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٧٩).

(٣) أي: هو الغالب المنتصر.

وكذلك كانت عائلة ياسر بن عامر في استعمال الصبر وحبس النفس، فلا مدد لهم إلا رجاء في الله أن يثبت أقدامهم وقلبهم.

وما الذي يزلزلهم وهم واثقون من إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر؟!!

الأب: عبد فقير أصله من اليمن، ضعيف البنية.

والأم: سمية بنت الخياط، فقيرة لا تملك شيئًا، السن فوق الستين.

والابن: عمار، بمقاييس الدنيا لا يساوي شيئًا.

كلهم: سيدهم: أبو جهل.

أول عائلة تسلم بالكامل، كان من يُسلم فرادى... ولم يجهر بالإسلام إلا سبع، أول عائلة تستشهد بالكامل.

يقول بعض العلماء: أراد الله أن يجمعهم مع بعض، أول شهيدة في الإسلام: امرأة.

لم يشهد التاريخ امرأة في الثبات، صُبَّ عليها العذاب صبًا؛ لتفارق دينها، وتكفر بربِّها، مثل سمية.

كان أبو جهل - لعنه الله - يريد منها كلمة واحدة؛ اكفري بمحمد ﷺ.

أحس اللعين أنها قهرته، فضربَها بالحربة في مكان عفتها، فماتت !!! ويمر المصطفى ﷺ على زوجها وابنها ويقول: «**صبرًا آل ياسر، إن موعدكم الجنة**».

بعد أيام يقتل ياسر، ويبقى عمار، الأذى يشتد، طاقته انتهت، يسب رسول الله ﷺ، ثم يسرع إلى رسول الله يبكي، فيقول له ﷺ مطمئنًا: «**إن عادوا فعد**»[1].

وفي معركة بدر بعد أربع عشرة سنة مات أبو جهل، فقال النبي

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٣٨٩)، حديث (٣٣٦٢)، والبيهقي في الكبرى (٨/٢٠٨).

ﷺ: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أين عمار؟**». فجاء عمار، فقال له ﷺ: «**أبشر يا عمار، أبشر لقد ثار الله لأبيك وأمك**»[١]. وقال - صلوات الله وسلامه عليه -: «**من عادى عمار فقد عادى الله، ومن أبغض عمار فقد أبغض الله**»[٢].

وقد استشهد عمار أثناء الحرب بين سيدنا على وسيدنا معاوية - رضي الله عنهما - إذْ كان في صف عليّ - رضي الله عنهم -.

فتوقفت المعركة، لماذا ؟ بسبب حديث رسول الله ﷺ: «**عمار تقتله الفئة الباغية**»[٣].

لماذا ماتت هذه العائلة بهذا المشهد الصعب ؟ هل تركهم المولى وهو قادر على نصرتهم ؟ كلا، كأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يقول لنا: إن هذا الدين غالٍ. وهو محتاج إلى مؤمنين أمثال آل ياسر؛ لتعلو كلمة الله، أنها الجنة، فقد جاء عن الرسول ﷺ: «**إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: منهم عمار بن ياسر**»[٤].

وأما الذكر، ذكر الله كثيرًا عند لقاء الأعداء، فهو التوجيه الدائم للمؤمن.

﴿واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: وأكثروا من ذكر الله أثناء القتال وتضاعيفه، اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته، ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سنته، وبذكر نهيه لكم عن اليأس، وبأن النصر بيده ومن عنده ، فمن ذكر وتأمل

---

(١) رواه الترمذي بمعناه ، حديث (٣٨٠٠) ، وانظر كنز العمال (٩٧٣٠) .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٨٩/٤) حديث (١٦٨٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله، حديث (٢٨١٢)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، حديث (٢٩١٦)، والترمذي، حديث (٣٨٠٠) .

(٤) **حسن** : رواه الترمذي، بلفظ : «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي وعمار وسلمان» كتاب: المناقب، باب: مناقب سلمان الفارسي، حديث (٣٧٩٧). وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث (١٥٩٨) .

هذا، لا تَهوله قوة عدوه واستعداده، لإيمانه بأن الله - تعالى - أقوى منه، واذكروه أيضًا بألسنتكم موافقة لقلوبكم. والدعاء والتضرع إليه ﷻ مع اليقين بأن الله لا يعجزه شيء.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ هذا الرجاء منوط بالأمرين كليهما؛ أي: أن الثبات وذكر الله - تعالى -؛ هما السببان المعنويان للفلاح، والفوز في القتال في الدنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة.

وثبت أن كان من أسباب انتصار الجيش البلغاري على الجيش التركي في حرب البلقان المشهورة: ما كان من إبطال القواد والضباط - من الترك - للأذان والصلاة من الجيش، والدعاية التي بثوها فيه: من وجوب الحرب للوطن، وباسم الوطن ولشرف الوطن. فلما علموا بهذا، أعادوا المؤذنين والأئمة بعمائمهم إلى الطابور وأقاموا الصلاة فيهم.

وقد روت الجرائد: أن العساكر لما سمعت الأذان صارت تبكي بكاءً بنشيج عالٍ، له تأثير عظيم. وكان تأثير ذلك بعود الكرة لهم على البلغار ظاهرًا، وسوف يرى الترك سوء عاقبة إفساد دين شعبها.

لأن الذكر غذاء الإيمان، فلا يكمل إلا بكثرته، فمن غفل عن ذكره - تعالى - استحوذ الشيطان على قلبه، وزين له الشرور والمعاصي.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي: أطيعوا الله في هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح في القتال وغيرها، وأطيعوا الرسول فيما أمر به، وينهي عنه في شئون القتال وغيرها.

وطاعة القائد العام: هي جماع النظام الذي هو ركن من أركان النصر، فكيف إذا كان القائد العام: رسول الله ﷺ المؤيد من لدنه بالوحي والتوفيق. كما ثبت لكم في هذه الغزوة وغيرها. وقد كان لهم من العبرة من ذلك أن الرماة عندما خالفوا أمره ﷺ في غزوة أحد كر المشركون عليهم، ونالوا ما نالوا منهم، بعد أن كان لهم الظفر عليهم. وأنزل الله في استغرابهم لذلك: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى

هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

﴿ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ؛ لأن التنازع يستلزم تشتيت القلوب وتفريقها، فتجبنوا وتنحل عزائمكم وتضعف قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر ﴿ واصْبِرُوا ﴾ على طاعة الله ورسوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالعون، والنصر، والتأييد.

يقول الأستاذ عمر التلمساني - رحمه الله - في ذكرى استشهاد الإمام حسن البنا: ففي إبان محنة الإضطهادات والاعتقالات بعد حل الجماعة، حدث الإخوان بقصة الطفل الذي اختصمت فيه امرأتان إلى سليمان الحكيم عليه السلام ادعت كل منهما بنوته، فحكم بشطره نصفين بينهما، فوافقت المرأة التي لم تلده على قسمته، بينما لم توافق الأم الحقيقية، وتنازلت عن نصيبها في ابنها نظير أن يظل متمتعًا بحياته.

وكان يعقب بقوله: إننا نمثل نفس الدور مع هؤلاء الحكام، ونحن أحرص منهم على مستقبل هذا الوطن وحريته، فتحملوا المحنة ومصائبها، وسلموا أكتافكم (للسعديين)؛ ليقتلوا ويشردوا كيف شاءوا؛ حرصًا على مستقبل وطنكم، وإبقاءً على وحدته واستقلاله.

وقال الإمام الهضيبي عنه: أقسم أني التقيت به وعاشرته، فما سمعت كلمة فيها مغمز في عرض أحد، أو دين أحد، حتى من أولئك الذين تناولوه بالإيذاء والتجريح في ذمته ودينه.

وكان رجل الحب، فكان يردد: (سنقاتل الناس بالحب)، بل كانت البيعة التي صاغها على: (الاستقامة والمحبة والثبات على الدعوة).

وعندما تقدم للترشيح لمجلس النواب في المرة الأولى، استدعاه النحاس وقال له: الإنجليز يرفضون دخولك المجلس، حتى لو استدعى الأمر عندهم إلغاء المجلس كله، فلا تحرجني مع الإنجليز!!! [1].

فاستجاب (البنا) في هدوء !!! [2]

---

(١) مختارات إسلامية ٧٧/٤٩- ٥١ .

(٢) كان الجدير بالنحاس وأمثاله أن ينصروا الحق وأهله لا أن يدافعوا عن الباطل وحزبه ﴿ ومَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٣] .

﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا ورِئَاءَ النَّاسِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم: الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم. والمقصود الأعظم: أنّهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله.

﴿ واللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبكم على ذلك أشد العقوبة، فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله - تعالى - وإعلاء دين الله..

قال البغوي في تفسير الآية: نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر، ولهم بغى وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم هذه قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**».

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره؛ أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم، فقد نجاها الله، فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكان موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق عام، فنقيم ثلاثا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

فوافوها فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية، والحسبة في نصر دينه، وموآزرة نبيه ﷺ[1].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- وجوب الثبات أمام الأعداء لإعلاء كلمة الله - تعالى -.

٢- ينبغي للمؤمن أن يذكر الله على كل حال.

٣- وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٣١ .

٤- النهي عن التنازع والاختلاف لعواقبهما الوخيمة.

٥- وجوب الصبر والإخلاص إزاء الأعمال جميعها.

٦- ارتباط الوعد والوعيد بسائر الأعمال.

* * *